مرحلة الاكتمال في الكلام الامامي:

من متكلمي تلك الفترة : نصير الدين الطوسي وابن ميثم البحراني والعلامة الحلي

من المتكلمين في تلك الفترة : محمّد بن محمّد بن الحسن نصير الدين الطوسيّ (ت ٦٧٢هـ) ومن مؤلفاته الكلامية:

تجريد الاعتقاد : يتصف كتاب «تجريد الاعتقاد» بالعمق والإحكام مع الاختصار، ومن هنا حظي باهتمام كبير من قبل العلماء شرحًا وتعليقًا وباللغتين العربيّة والفارسيّة. يعتبر الكتاب ولمنهجيّة الخواجة الخاصّة في الفلسفة والكلام، نقطة فارقة ومنعطفًا بارزًا في تاريخ علم الكلام، حيث تمكن الخواجة هنا من التلفيق بين الفلسفة المشّائيّة والكلام الشيعيّ، مما أدّى إلى ردم الفجوة، والتقارب أكثر بين الفلسفة والكلام في الوسط الفكريّ الشيعيّ. وقد شرحه العلامة الحلي وشرحه مطبوع متداول باسم «كشف المراد».

قواعد العقائد: الكتاب يركز على نقل الأقوال والآراء، وليس بصدد المناقشة فيها والنقد عليها، إلا نادرا، فذكر مواضع الخلاف بين الحكماء والمتكلمين، وموارد الخلاف بين المعتزلة وأهل السنّة والشيعة، وبين علماء تلك المذاهب أنفسهم. وقد شرحه العلامة الحلي وشرحه مطبوع متداول باسم «كشف الفوائد».

تلخيص المحصل : الكتاب كما يستفاد من اسمه تلخيص وتحليل نقديّ لكتاب « محصل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين من العلماء والحكماء والمتكلمين » الذي وضعه فخر الدين الرازيّ.

ميثم بن علي بن ميثم بن معلى كمال الدين أبو الفضل البحرانيّ المعروف بابن ميثم البحرانيّ (ت ٦٩٩ هـ) ومن كتبه الكلامية:

قواعد المرام في علم الكلام: يعتبر من الكتب الكلاميّة المهمّة جدًا والمختصرة، وهو مع اختصاره يمتاز باشتماله على كلّ مباحث أصول الدين وما يلحق بها من المسائل الاعتقاديّة، بالإضافة إلى وضوحه وقوّة عباراته وإشراق أسلوبه وخلوّه عن التعقيد الذي يرى في كثير من الكتب المشابهة له.

النجاة في القيامة : تعرّض ابن ميثم البحرانيّ فيه للآراء المختلفة حول الإمامة، وردّ الأدلة التي عرضها المخالف في هذا المجال، ثمّ بيّن النظريّة الصحيحة في الإمامة بأدلة محكمة.

الحسن بن يوسف بن عليّ بن المطهّر الأسديّ جمال الدين المعروف بالعلامة الحليّ (٦٤٨-٧٢٦هـ)

فاضل، عالم، علامة العلماء،محقق، مدقق، ثقة ثقة، فقيه محدث، متكلم ماهر، جليل القدر، عظيم الشأن، رفيع المنزلة، لا نظير له في الفنون والعلوم العقليات والنقليات، وفضائله محاسنه أكثر من أن تحصى ...

مؤلفاته : له مصنفات كثيرة في الفقه وأصوله وعلم الرجال والمنطق والفلسفة وله اهتمام خاص بعلم الكلام إذ كتب ما يناهز الثلاثين مؤلفا في علم الكلام نذكر منها الآتي:

الباب الحادي عشر، كشف المراد، كشف الفوائد، الألفين، تسليك النفس إلى حظيرة القدس، معارج الفهم في شرح النظم، نهاية المرام في علم الكلام، نهج الحق وكشف الصدق، الرسالة السعدية، منهاج الكرامة في معرفة الامامة، و...

انوار اللاهوت في شرح الياقوت: كتاب الياقوت تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن نوبخت(المتوفى٣١٠هـ) كما ذكره العلامة في مقدّمة الكتاب والشرح للعلامة الحليّ. وكتاب الياقوت من المتون القديمة التي لا غنى عنها للباحثين والمثقفين، لأنه شرح فيه العقائد والآراء المختلفة للفرق المذكورة في الكتاب، وفي عهد المؤلف، فهو من مرجع للمحققين في تاريخ الفرق والعلوم الإسلاميّة.

منهاج الكرامة في معرفة الإمامة: كتاب يحتوي على كمّ كبير من البراهين العقليّة والنقليّة المثبتة لإمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأبنائه المعصومين وأحقيّة المذهب الشيعيّ، ألفه للسلطان «محمد خدا بنده أولجايتو» فكان له الأثر الكبير في تشيّعه وتشيّع كثير من الناس.

مناهج اليقين في أصول الدين : الكتاب جامع لأنظار العلامة الحليّ في لطيف الكلام وجليله، فقد جرى العلامة على تقرير الأقوال في كلّ مسألة مع تحقيقها بالدليل المعتمد عنده دون تقليد، مع اختصارٍ في العبارة وإيجازٍ فيها وترك ما هو قليل الفائدة.

يمتاز بعرضه لجميع آراء المتكلمين تقريبًا، بدءًا بفلاسفة اليونان، ومرورًا بالثنويّة، والمجوس، واليهود، والصابئة، والنصارى، وانتهاءً بآراء متكلمي المسلمين من كلّ الفرق الإسلاميّة. وأمّا أسلوبه في النقاش والأدلة، فإنه يعتمد بشكل عامّ على الأدلة العقليّة.

منهج العلامة الحلي

ويظر أثر نصير الدين الطوسي كثيرا في المدرسة الحليّة، فمن مميزات هذه المدرسة: طبيعة التحول الكبير الذي سيطر على المنهج العقائدي الموروث، والتغيير في آلياته وأدواته وأهم مفاهيمه، إذ سيبرز في هذه المدرسة (جيل من المتكلمين الإماميين ذو تكوين جديد ومختلف عن أسلافه، تكوين طابعه منطقي – فلسفي)، وأبرز من مثل هذا الاتجاه هو العلامة الحلي، فهو الوريث الحقيقي لمدرسة أستاذه الطوسي، في تضلعه بالفلسفة وتوظيفها لمباحثه العقائدية، إذ تداخلت العناصر الفلسفية والكلامية في فكر العلامة الحلي، ويأتي هذا التداخل توخيا للدقة وطلبا لسلامة الدليل، فالمطالب الفكرية الدقيقة والعميقة في مباحث الإلهيات بشقيها الأعم والأخص، تقتضي تارة ترجيح مقدمات ومبانٍ فلسفية عندما تلوح ثغرات واضحة في المباني الكلامية، وأخرى تميل مع كفة المباني الكلامية بالضد من الفلسفية، عندما يشم من هذه الأخيرة بعض اللوازم الفاسدة. وفي النهاية توظف كل هذه المنظومة العقلية - كلامية وفلسفية- للعقيدة الصحيحة، باعتبار أنّ العلامة الحلي ينخرط في سلك المتكلمين، ودوافعه وغاياته دينية لا غبار عليها.

تحولت العلاقة ما بين الفلسفة والكلام من طابعها السجالي، إلى علاقة تكاملية تنتظم فيها العناصر الفلسفية والكلامية ضمن أنساق استدلالية مشيّدة البناء الفكري المحكم للعلامة الحلي، فقد قرّب علم الكلام من الفلسفة، وجر المفاهيم الفلسفية للقواعد الكلامية، فالعلامة خبير بتوظيف الآراء الفلسفية، عالم بمواطن الحاجة إليها، ولذا نجده لا يتردد في نقد الأفكار الفلسفية عند معارضتها للعقيدة بحسب رؤيته، أو عندما يلمس فيها قصورا أو ضعفا.

نموذج من أسلوبه، فقرات من كتاب الباب الحادي عشر للعلامة الحلي

انما سمّى هذا الكتاب الباب الحادى عشر لان المصنّف اختصر مصباح المتهجد الذي وضعه الشيخ ابو جعفر الطوسى - ره - فى العبادات والأدعية ، ورتب ذلك المختصر على عشرة ابواب ، وسمّاه كتاب منهاج الصلاح فى مختصر المصباح. ولما كان ذلك الكتاب فى فنّ العمل والعبادات والدّعاء ، استدعى ذلك الى معرفة المعبود والمدعوّ ، فاضاف إليه الباب الحادي عشر في اصول الاعتقاد.

فى إثبات واجب الوجود لذاته تعالى،

فنقول: كلّ معقول إمّا أن يكون واجب الوجود فى الخارج لذاته ، وإمّا ممكن الوجود لذاته ، وإمّا ممتنع الوجود لذاته.

لا شكّ فى أنّ هنا موجودا بالضّرورة ، فإن كان واجب الوجود لذاته ، فهو المطلوب، وإن كان ممكنا افتقر إلى موجد يوجده بالضّرورة ، فإن كان الموجد واجبا لذاته فهو المطلوب ، وإن كان ممكنا

افتقر إلى موجد آخر، فإن كان الأوّل دار وهو باطل بالضّرورة ، وإن كان ممكنا آخر تسلسل وهو باطل أيضا ، لأنّ جميع آحاد تلك السّلسلة الجامعة لجميع الممكنات تكون ممكنة بالضّرورة، فتشترك فى إمكان الوجود لذاتها، فلا بدّلها من موجد خارج عنها بالضّرورة، فيكون واجبا بالضّرورة وهو المطلوب.

فى صفاته الثبوتية وهى ثمانية:

الأولى ، أنه تعالى قادر مختار لأنّ العالم محدث لانه جسم ، وكلّ جسم لا ينفكّ عن الحوادث ، أعنى الحركة والسّكون، وهما حادثان لاستدعائهما المسبوقيّة بالغير، وما لا ينفكّ عن الحوادث فهو محدث بالضّرورة ، فيكون المؤثر فيه ، وهو اللّه تعالى قادرا مختارا ، لأنه لو كان موجبا، لم يتخلف أثره عنه بالضّرورة ، فيلزم من ذلك إمّا قدم العالم أو حدوث اللّه تعالى ، وهما باطلان.

وقدرته يتعلق بجميع المقدورات ، لأنّ العلة المحوجة إليه هى الإمكان ، ونسبة ذاته إلى الجميع بالسّويّة ، فيكون قدرته عامّة.

الثانية ، أنه تعالى عالم لأنه فعل الأفعال المحكمة المتقنة، وكلّ من فعل ذلك فهو عالم بالضّرورة. وعلمه يتعلق بكلّ معلوم لتساوى نسبة جميع المعلومات إليه، لأنه حىّ وكلّ حىّ يصحّ أن يعلم كلّ معلوم ، فيجب له ذلك لاستحالة افتقاره إلى غيره.

الثالثة، أنه تعالى حىّ لأنه قادر عالم فيكون حيّا بالضّرورة. ... الخ

فى صفاته السّلبيّة ، وهى سبع:

الأولى ، أنه تعالى ليس بمركب ، وإلا لكان مفتقرا إلى أجزائه ، والمفتقر ممكن.

الثانية ، أنه ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ، وإلا لافتقر إلى المكان ، ولامتنع انفكاكه من الحوادث ، فيكون حادثا وهو محال. ولا يجوز أن يكون فى محلّ ، وإلا لافتقر إليه ، ولا فى جهة ، وإلا لافتقر إليها...

الرّابعة ، أنه تعالى يستحيل عليه الرّؤية البصريّة ، لأنّ كلّ مرئى فهو ذو جهة ، لأنه إمّا مقابل أو فى حكم المقابل بالضّرورة ، فيكون جسما وهو محال ، ولقوله تعالى : (**لنْ تَرانِي**) ولن النّافية للتأبيد.

الخامسة ، فى نفى الشّريك عنه للسّمع وللتمانع ، فيفسد نظام الوجود ، ولاستلزامه التركيب لاشتراك الواجبين فى كونهما واجبى الوجود ، فلا بدّ من مائز.

السّادسة ، فى نفى المعانى والأحوال عنه تعالى ، لأنه لو كان قادرا بقدرة ، وعالما بعلم ، وغير ذلك ، لافتقر فى صفاته إلى ذلك المعنى ، فيكون ممكنا ، هذا خلف....

فى العدل ، وفيه مباحث ،

الأوّل ، العقل قاض بالضّرورة أنّ من الأفعال ما هو حسن ، كردّ الوديعة والإحسان والصّدق النّافع، وبعضها ما هو قبيح، كالظلم والكذب الضّارّ ، ولهذا حكم بهما من نفى الشّرائع ، كالملاحدة وحكماء الهند، ولأنهما لو انتفيا عقلا لانتفيا سمعا ، لانتفاء قبح الكذب حينئذ من الشّارع.

الثاني ، إنا فاعلون بالاختيار ، والضّرورة قاضية بذلك ، للفرق الضّروريّ بين سقوط الإنسان من سطح ، ونزوله منه على الدّرج ، ولامتناع تكليفنا بشيء فلا عصيان ، ولقبح أن يخلق الفعل فينا ، ثمّ يعذّبنا عليه ، وللسّمع. ... الخ

الخامس ، فى أنه تعالى يجب عليه اللطف ، وهو ما يقرّب العبد إلى الطاعة ويبعّده عن المعصية ، ولا حظ له فى التمكين ، ولا يبلغ الإلجاء لتوقف غرض المكلف عليه. فإنّ المريد لفعل من غيره إذا علم أنه لا يفعله إلا بفعل يفعله المريد من غير مشقّة لو لم يفعله لكان ناقضا لغرضه وهو قبيح عقلا.

وقد شرح الباب الحادي عشر أكثر من عالم وأشهرها شرح المقداد السيوري المسمى ب«النافع يوم الحشر» المتداول درسه ومباحثته كنموذج للكلام التقليدي.